جامعة تكريت

كلية التربية للعوم الانسانية

قسم اللغة العربية

المادة : نظرية الأدب

المرحلة : دكتوراه أدب

عنوان المحاضرة

الظاهراتية

أ.د. نرجس خلف أسعد

ـ الظاهراتية

الظاهراتيـــة (الفينومينولوجيا) : يتكون مصطلح (الفينومينولوجيا) مـن مقطعين (فينومينا : ويعني ظواهر) و(نومينا : وتعني خارج الذات)أي الظواهر التي تقع خارج الذات .

والظاهراتية : اتجاه فلسفي يعنى بالطريقة التي تدرس كيفية تجلي الواقع في الوعي ، من أجل الوصول إلى (الجواهر عبر المظاهر) .. وطريقتها في ذلك الوصف ، ومبدؤها هو الاختزال .

– مؤسس الظاهراتية

تأسس هذا المنهج على فلسفة المفكر الألماني (إدموند هوسرل) (1859–1938) الذي يرى أن المعرفة الحقيقية للعالم لا تتأتى من محاولة تحليل الأشياء كما هي خارج الذات ، وإنما بتحليل الذات نفسها وهي تقوم بالتعرف على العالم ، أي بتحليل الوعي ، وقد استبطن الاشياء فتحولت إلى (ظواهر) ، ذلك أن الوعي لا يكون مستقلاً ، وغنما هو دائماً (وعي بشيء ما) بشرط تجريده ما أية تصورات قبلية .

وهكذا تبدو (الظاهراتية) فلسفة ذات نظرة شمولية إلى كل ما في الكون ، ولهذا يحتل فلاسفتها أماكن هامة في كتب العلم والابستمولوجيا .

في كتابه (تأملات ديكاتية أو المدخل إلى الفينومينولوجيا) (1931) يحدد هوسرل مبدأين : أحدهما سلبي يقرر فيه أنه يجب التحرر من كل رأي سابق ، وهذا يشبه حالة الشك عند (ديكارت) مع فارق أن هوسرل يضع العالم بين قوسين ، لكي يحصر نظره في الخصائص الجوهرية للأشياء .

المبدأ الثاني : (الايجابي) هو ما يدل على ماهية الموضوع حيث يرى وجوب الذهاب إلى الأشياء نفسها وكثيراً ما كان هوسرل يتلفت حوله وهو يلقي محاضراته ويقول : ((إن الظاهرة هي ما نراه حولنا ، وأنها الخطوة الأولى الحقيقية التي تقيم عليها عقول الناس معرفتها بكل شيء)) .. وهكذا اطلق هوسرل من رفض قناعة رجل الشارع القائمة على الحس بأن (الموضوعات) توجد مستقلة عنا في العالم الخارجي ، وأن معلوماتنا عنها يمكن التعويل عليها ،

فهذا الموقف البديهي هو موضع شك عنده . و اليقين في معرفة الكيفية التي تظهر بها مباشرة في الوعي ، حيث لا يمكن النظر الى الموضوعات كأشياء في ذاتها ، وإنما كأشياء يفترضها الوعي , علماً بأن الوعي ليس مجرد تسجيل منفعل للعالم ، وإنما هو يؤسسه على نحو فاعل . ومن أجل قامة يقين ينبغي أن نضع بين قوسين كل ما هو خارج نطاق تجربتنا المباشرة وأن نختزل العالم الخارجي إلى محتويات وعينا وحده . وهذا ما دعاه هوسرل (الاختزال الظاهراتي) .

يهدف (علم الظاهرات) إلى العودة إلى (الاشياء ذاتها) أي إلى الملموس ، وإلى ما يمكن التوثق منه بالتجربة . ولفهم أية (ظاهرة) يعني فهم ما هو جوهري وثابت فيها : ففي معرفة اللون الأحمر مثلاً ينبغي معرفة الحمرة بذاتها أو ما هية الحمرة . ومن هنا يصف (هوسرل) منهجه بأنه تجريدي (ماهوي) وفلسفته بأنه ليس ثمة فيها موضوع دون ذات ، ولا ذات دون موضوع ، لأن الموضوع والذات وجهان لعملة واحدة .

- نقاد آخرون

تطورت آراء (هوسرل) فيما بعد إلى نظرية نقدية على يد مجموعة من المفكرين منهم الفرنسيان ميرلو بونتي و غاستون باشلار والبولندي رومان انجاردين ، وكذلك الاضافات النظرية والتطبيقية التي اسهم بها نقاد مثل مارسيل ريمون وجان روميه وجان بيير رشيار وجورج بوليه وكذلك الأمريكي جوزيف هيللس ميلر ..

يقول انجاردين أن العمل الأدبي يقوم على افعال قصدية من قبل مؤلفه تجعل من الممكن للقارئ أن "يعايشه " بوعيه كقارئ ، وتعني العايشة هنا نوعاً من التداخل عبر التجربة القرائية بين المؤلف والقارئ ، ذلك أن النص لايأتي كاملاً من مؤلفه ، بل هو مشروع دلالي وجمالي يكتمل بالقراءة النشطة التي تملأ ما في النص من فراغات (وقد اثرت هذه الآراء فيما بعد على نشوء ما يعرف بنظريات الاستقبال واستجابة القارئ عند فولفغانغ إيزر وهانز روبرت ياوس)

من اشهر المدارس التي وظفت النقد الظاهراتي بشكل مكثف مدرسة جنيف التي ضمت مارسيل ريمون وجان روميه وجان بيير ريشار وجورج بوليه ، وكان من المنطلقات الاساسية لهذه المدرسة ((أن العمل الأدبي عالم خيالي خارج من العالم المعاش ، عالم يجسد وعي الكاتب في

تشكيل فريد من نوعه)) وفي هذا تعارض واضح مع المدرسة الشكلانية الروسية التي تعامل النص كعالم مستقل عن ذات كاتبه . فالعمل الأدبي بالنسبة للظاهراتيين انتاج ذاتي في المقام الأول . أي أنهم يشكلون استمراراً للاتجاه الهيرموناطيقي الذي يقرأ النص كتعبير عن ذات كاتبه .

أما الفيلسوف الألماني (مارتن هيدجر) فيقيم فلسفته على اساس (تأويلي) . وقد وجد في ظاهراتية استاذه (هوسرل) بعض المفاهيم المساعدة ، فرفض اعتبار الانسان محور الوجود ، والعنصر الفاعل في المعرفة . كما رفض فكرة الوعي الذاتي ، ورأى في وعي الانسان لوجوده مفاتيح لفهم طبيعة الوجود وهو يتشكل من خلال تجارب الحياة الحية التي يواجهها الانسان وهذا الوعي يتجاوز مقولات الزمان والمكان ومفاهيم الفكر المثالي .

والنص الأدبي – عنده – ليس تعبيراً عن (حقيقة داخلية) للكاتب ، وإنما هو (تجربة وجودية) للكاتب . وكما أن (اللغة) ليست ذاتية ولا موضوعية ، فكذلك النص الأدبي ليس ذاتياً ولا موضوعياً ، وإنما هو (تجربة وجودية) تتجاوز الذاتية والموضوعية . منطلقاً من (الكينونة) لا من (الجوهر) .

إن الإقرار بتاريخية المعنى هو ما أدى بالفيلسوف الألماني مارتن ها يدجر أشهر تلامذة هوسرل إلى إعلان القطيعة مع نسقه الفلسفي . ينطلق هوسرل من أن الذات متسامية بينما يرفض هايدجر نقطة الإنطلاق هذه ليبدأ بدل ذلك من التفكير في الوجود الإنساني غير القابل للاختزال باعتباره "معطى مسبقا" أو كما يسميه . ولهذا السبب ينعت عمله –غالبا– بأنه "وجودي " على خلاف "الطابع الجوهراني" الفظ لعمل أستاذه . وهكذا يعني الانتقال من هوسرل إلى هايدجر الانتقال من ميدان العقل الخالص إلى فلسفة تتأمل ما يحتمل أنه حي . وبينما اكتفت الفلسفة الأنجليزية بتواضعها المعتاد بالبحث في أمور ثانوية وتوطين النفس على أن "لم يحدث شيء" و"لم يقل شيء" اتجه عمل هايدجر الرئيسي Being and Time 1927 نحو مسألة الكينونة نفسها ، وعلى نحو خاص ذاك النوع من الكينونة في العالم بالدرجة الأولى : نحن ذوات إنسانية لأننا مرتبطون عمليا بالآخرين وبالعالم المادي ، ويعتبر هذا الارتباط مكونا لحياتنا ، لا عرضيا . فالعالم ليس موضوعا خارجيا " يحلل تحليلا عقلانيا ويجعل إزاء ذات متأملة : ليس بتاتا شيئا نوجد خارجه ثم نقف إزاءه . إننا ننبثق ، باعتبارنا ذوات ، من داخل واقع لا

نستطيع أبدا أن نشيئه ، واقع يحيط "بالذات" و "الموضوع" معا ، واقع لا تنفد معانيه ، واقع يشكلنا مثلما نشكله تماما . بيد أن العالم ليس شيئا ينحل إلى صورة ذهنية على الطريقة الهوسرلية ، ذلك أن له وجودا شرسا وعنيدا خاصا به يستعصي على مشاريعنا ، ونحن نوجد باعتبارنا جزءا منه فقط . ويعتبر تنصيب هوسرل الأنا المتسامية المرحلة الأخيرة في فلسفة عقلانية أنوارية يطبع " الإنسان" ، في نظرها ، صورته بشكل متميزعلى العالم . وعلى عكس ذلك سيزحزح هايدجر الذات الإنسانية من موقع الهيمنة الخيالي هذا . فالوجود الإنساني حوار مع العالم ، والنشاط الأكثر حكمة هو الإنصات لا الكلام ؛ والمعرفة الإنسانية تنطلق دائما مما يسميه هايدجر "ما قبل الفهم" وتتحرك داخله . وقبل أن نصبح قادرين على التفكير المنظم كنا نتقاسم مع العالم عددا كبيرا من الافتراضات الضمنية المنبثقة من علاقتنا العملية الوثيقة معه ، وما العلم أو النظرية بشيء آخر سوى تجريدات جزئية من هذه الاهتمامات الملموسة ، تماما مثلما الخريطة عملية تجريدية لأرض حقيقية . وعليه ليس الفهم ، سلفا، معرفة قابلة للعزل ، فعلا خاصا أنجزه بل هو جزء من البنية الحقيقية للوجود الإنساني . ولما كنت أحيا بشريا فقط "بإلقاء" نفسي في الآتي وبالتعرف على إمكانات جديدة للكينونة وتحققها فإنني لست أبدا مطابقا لنفسي ، وإنما أنا كائن متجه مسبقا إلى الأمام متجاوزاً نفسي . ومن ثم ليس وجودي ، بتاتا ، شيئا يمكنني إدراكه موضوعا منتهيا ، بل باعتباره دائما احتمالا جديدا وإشكاليا ؛ ويتساوى هذا مع القول بأن الكائن الإنساني يكونه التاريخ أو الزمن . على أن الزمن ليس وسيطا نتحرك داخله كما تتحرك القنينة على النهر ، بل هو بنية الحياة نفسها ، شيء خلقت منه قبل أن يكون شيئا أقيسه . وبناء عليه يعد الفهم بعدا من أبعاد Dasein * قبل أن يكون متعلقا بفهم شيء مخصوص ، أي الدينامية الداخلية لترنسند نتاليتتي الذاتية الراسخة . ان الفهم تاريخي ، اي انه منصهر دائما مع الوضعية الملموسة التي أنا فيها ، والتي أحاول تجاوزها .

إذا كان الزمن يكون الوجود الإنساني ، فإن اللغة هي الأخرى تصنع هذا الوجود . ففي رأي هايدجر إن اللغة ليست وسيلة تواصل فحسب ، وسيلة ثانوية للتعبير عن "الأفكار" ، بل هي ذلك البعد الذي تتحرك فيه حياة الإنسان ، أي ما يجعل العالم في الصدارة . وحيثما وجد العالم " وجدت اللغة ، بالمعنى الإنساني حصرا . لا يفكر هايدجر في اللغة باعتبارها ما يمكن أن أقوله أنا أو أن تقوله أنت ، ذلك أن للغة وجودها الخاص بها ، وهو وجود يساهم فيه الكائن البشري ،

وبهذه المساهمة فقط يكون الإنسان إنسانا . ويسبق وجود اللغة وجود الذات الفردية دائمـا ، كما المجال الحقيقي الذي تتفتح فيه الذات] ؛ وإذا كانت اللغة أداة لتبادل المعلومات الدقيقة فهي بهذا المعنى تتضمن "الحقيقة" بقدر أقل مما إذا كانت المكان الذي "ينكشف" فيه الواقع ويمنح نفسه لتأملاتنا . إن إضفاء هذا المعنى على اللغة ، أي اعتبارها حدثا شبه موضوعي يسبق وجوده وجود كل الأفراد المخصوصيـن ، يجعل تفكير هايدجر شديد الموازاة مع النظريات البنيوية .

بناء على ما تقدم فإن ما هو مركزي في فكر هايدجر هو الكينونة نفسها ، لا الذات الفردية . ويكمن خطأ الميتافيزقا التقليدية الغربية في رؤيتها الكينونة نوعا من الكيان الموضوعي جاعلة سدا بينه وبين الذات ؛ وقد سعى هايدجر ، بالأحرى ، إلى العودة إلى ما قبل فكر سقراط ، أي قبل أن تصبح ثنائية الذات والموضوع شيئا قائمـا ، وسعى كذلك إلى النظر إلى الكينونة باعتبارها شيئا يضم الذات والموضوع معا . وفي عمله المتأخر على الخصوص كانت نتيجة هذا الاقتراح النفاذ هي الذلة المدهشة أمام غرابة الكينونة . أما عقلانية الأنوار فيجب رفضها بسبب موقفها الأداتي التحكمي الفظ من الطبيعة ليحل محلها الإنصات المتواضع إلى النجوم والسماوات والغابات شأن "فلاح مبهور" ، حسب التعبير الحاد لمعلق إنجليزي . وعليه يجب على الإنسان أن "يفسح الطريق" أمـام الكينونة جاعلا نفسه ملكا لها : يجب عليه أن يعود إلى الأرض الأم المعطـاء التي هـي المنبـع الأول لكـل معنى . ويعد هايدجر –فيلسوف الغابة السوداء (6م)– حتى الآن شارحا آخـر رومانسيا "للمجتمع العضوي" رغم أن عواقب هذه العقيدة أشد تدميرا في حالته مما هي في حالة ليفيس . وقد أدى تعظيم شأن الفلاح وتحقير العقل لفائدة "الفهم القبلي" العفوي والاحتفاء بالحكمة السلبية – يضاف إلى ذلك إيمان هايدجر بوجود "موثوق" سائـر نحو الفناء متعال على الجماهير المجهولة .